التصورات الأمبريقية لعالم الجديد

ارتبط الاتصال في الولايات المتحدة، منذ العقد الاول من القرن العشرين، بمشروع بناء علوم اجتماعية مؤسسة على قواعد أمبريقية، حيث مثلت مدرسة شيكاغو نقطة الانطلاق لهذا المشروع، فمقاربتها الميكروسوسيولوجية لدور أساليب الاتصال في تنظيم الجماعات البشرية، تناغم مع فكرها حول دور الأدوات العلمية المعرفية في الوصول إلى حلول لاختلافات الاجتماعية الكبرى. وقد سادت أطروحات هذه المدرسة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. أما سنوات الأربعينات، فقد عرفت ظهور تيار جديد، شهرت باسم بحوث وسائل الاتصال (Mas Comunication Research) ، وهو ينزع في قرائته لظواهر التي يدرسها إلى التحليل الوظيفي، معتمدا في مقارباته البحثية على الدراسات الكيفية التي رأى أنها أفضل الأدوات المنهجية في الاستجابة لما يطرحه القائمون على وسائل الإعلام.

اولا : مدرسة شيكاغو و الإيكولوجيا البشرية

المدينة ((صورة طيفية لمجتمع))

تميزت، ضمن أعضاء مدرسة شيكاغو ، شخصية روبرت إيزرا بارك (Robert Ezar Park) (١٨٦٤ – ١٩٤٤). فقد حصل بارك على شهادة الدكتوراه من جامعة هايدلبورغ (Heidelberg) سنة ١٩٠٣، عن أطروحته ((الحشد و الجمهور)) ، مع أنه لم يلتحق بالجامعة إلا سنة ١٩١٣. وقد اشتهر باعتباره محققا محترفا قام بالكثير من التحقيقات الصحافية الكبيرة، كما أنه كان مناصرا لقضايا السود في الولايات المتحدة، حيث استثمر معارفه الميدانية في عالم التحقيقات، في البحوث السوسيولوجية التي طبقها على ضواحي الولايات المتحدة، التي يعتبرها نماذج متقدمة لتقصي الصحافي. وقد تتلمذ بارك على يد جورج سيمل، الذي كان يتساءل عن دور المدينة ((كحالة روحية))، معتبرا أن الأساس النفسي " لشخصية الحضرية " يكمن في " تكثيف التحفيز العصبي " و " الحراك "، كما يعتبر بارك من الذين أدخلوا فكر غبريال تارد إلى الولايات المتحدة. فمقابل السوسيولوجيا التي تنزع إلى التنظير الفلسفي لأوربا في ذلك الحين، الباحثة عن بناء أنظمة تأويلية كبيرة، قدم سيمل وتارد لأمريكين مفاهيم مقربة من ((الوضعيات الموضوعية))، قادرة على مساعدتهم على تشكيل أدوات معريفية منهجية لتحليل " المواقف " و " السلوكيات ".

وقد اختارت مدرسة شيكاغو المدينة فضاء لممارساتها البحثية التجريبية، إذ اعتبرتها " مختبرا اجتماعيا " بدلالاته التي تحمل عدم التنظيم و التهميش و المثاقفة و الاندماج، وحيث أن المدينة أيضا هي فضاء " الحراك " الاجتماعي. وقد تجلت تأثيرات مساهمات باحثي هذه المدرسة، بين ١٩١٥ – ١٩٣٥، في تركيزها على مسألة الهجرة و دمج المهاجرين الجد في نسيج المجتمع الأمريكي. فمن خلال دراساته حول الجماعات العرقية، كان التساؤل المركزي لبارك يدور حول الدور الاندماجي للصحف، ولا سيما المطبوعات العديدة بالغات الأجنبية، وحول طبيعة المعلومات، ومهنية الصحافة، والفروق التي تميزها عن " الدعاية الاجتماعية " أو " الإعلانات البلدية ".

اتضحت معالم إشكالية بارك وزميله إ.و. برغس (Burgess . E. W) ، سنة ١٩٢١، تحت مسمى " الإيكولوجيا البشرية "، التي تجد مرجعيتها في المفهوم الذي صاغه إرنست هيكل (Ernest Haeckel) سنة ١٨٥٩. فقد عرف هذا الالماني المتخصص في علم الأحياء، الإيكولجيا " علم البيئة " بأنها العلم الذي يدرس علاقات الكائن الحي بمحيطه الطبيعي الذي يشمل، تفصيلا، كل الشروط الضرورية لوجوده فمن خلال اقتباسهما من العديد من المساهمات البحثية لعلماء النبات والحيوان، وبالعودة إلى سبنسر، قدم بارك وبرغس برنامجهما كمحاولة علمية لتطبيق نظرية الإيكولوجيا النباتية والحيوانية على دراسة الجماعات البشرية.

يرتكز تعريف الجماعة البشرية على ثلاثة عناصر أساسية:

تجمع سكاني منظم متجذر ضمن حيز جغرافي معين، تسود بين أعضائه علاقات الاعتماد المتبادل التي يحكمها التوافق و التكافل. في هذا " الاقتصاد البيولوجي " – وهو مصطلح يستخدمه بارك احيانا كمرادف لإيكولوجيا البشرية – فإن " الصراع على الفضاء (الحيز الجغرافي) " هو الذي يميز العلاقات بين الأفراد. هذا التنافس يعتبره بارك مبدأ مهما لتنظيم العلاقات. إن التنافس و تقسيم العمل، في المجتمعات البشرية، يولدان أشكالا غير مخط لها للتعاون التنافسي اعتمادا على العلاقات التوافقية أو الطبيعية " العضوية / الحياتية " لتنظيم البشري. إن هذا المستوى من " التجزئة الاجتماعية " يمثل انعكاسا لشبكة حياتية (Web of Life) " تربط المخلوقات الحية في العالم أجمع ضمن عملية اندماجية حيوية ". فهذه " الجماعة العضوية " التي يتوزع أعضاؤها جغرافيا ووظيفيا بطريقة تنافسية، يمكن معاينتها و تتبعها في مراحلها المتعاقبة . لقد أخذ بارك وزميله بهذا التصور لتبين حقيقة " دورة العلاقات الاثنية / العرقية " (تنافس، صراع، تكيف، اندماج) ضمن مجموعات المهاجرين.

لقد قابل بارك المستوى " العضوي / الحياتي " بالمستوى الاجتماعي أو الثقافي، معتبرا هذا الأخير بنية فوقية تم بناؤها فوق " البنية الحياتية الجزئية "، بحيث تفرض نفسها عليها " كأداة لتوجيه و التحكم ". هذا المستوى الاجتماعي أو الثقافي يتحق من خلال الاتصال والإجماع (أو النظام الأخلاقي)، حيث أن وظيفته الأساسية هي تنظيم التنافس، وهو بهذا يتيح الفرصة لأفراد لتقاسم تجاربهم و الارتباط بالمجتمع. فالثقافة تمثل، في نفس الوقت ، مجموع التقاليد و المعتقدات و الأدوات أو المعدات التكنلوجية. يبقى أن هذا المستوى لا ينتمي، مباشرة، إلى هذا العلم الإيكولوجي الجديد.

إن الإيكولوجيا البشرية تعتبر أن أي تغير يمس تقسيم العمل الموجود سابقا أو العلاقات بين السكان، يجب أن يتم في إطار الفكر المؤس على التوازن، ودراسة الأزمات و العودة إلى التوازن. وبعبارة بارك " فإنها تدرس السيرورات التي يتم من خلالها الحفاظ على " التوازن العظوي / الحياتي " و " التوازن الاجتماعي " الذين يتم تبنيهما، إنها السيرورات التي تمكن من الانتقال من نظام إلى آخر ثبات نسبيا، بمجرد أن يتعرض أحدهما لاختلال.

إن التعارض الأصلي بين العضوي و الاجتماعي ، الذي قالت به الإيكولوجيا البشرية،أثار الكثير من النقاشات خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. فقد انتقد الكثيرون بارك، معتبرين أنه لم يعر اهتماما لتواصل بين سيرورة التنافس و الفضاء السوسيوثقافي الذي يحد علاقتها، كما أنه وقع تحت إغراء الحتمية البيلوجية. لكن بارك نفسه سلم بصعوبة وضع حدود فاصلة بين الاثنين، وذلك من خلال دراسته حول التنشئة الاجتماعية ضمن " نسيج الحياة الحضرية ". ونجد الأمر نفسه في هذه المدرسة التي يتقاسم مقارباتها علماء الإثنولوجيا، و السوسيولوجيا و الجغرافيا و الديمغرافيا، حيث تجلى مواقف مختلفة حول طبيعة الرابط بين المستوين.

التنوع و التجانس

إن المنهجية الإثنوغرافية " الدراسات الشاملة لأحياء، الملاحظة بالمشاركة " التي تهتم بدراسة التفاعلات الاجتماعية هي التي أست لظهور سوسيولوجيا فرعية (Microsociology) مهتمة بالتجليات الذاتية لفاعل الاجتماعي. وقد تاثرت، في هذا التوجه بالفلسفة البراغماتية / الذرائعية الأمريكية التي ينتمي إليها، في حقل العلوم الاجتماعية، كل من عالم التربويات جون ديوي (John Dewey) (١٨٥٩ – ١٩٥٢) و المتخص بعلم النفس الاجتماعي جورج هربرت ميد (Gerorges Herbert Mead) (١٨٦٣ – ١٩٣١).

وإذا كانت البراغماتية قد طبعت مجموعة المنضوين تحت مدرسة شيكاغو، فإن تأثيرها الأبرز قد تجلى، خصوصا، في أعمال تشارلز هورتن كولي (Charles Horton Coley) (١٨٦٤ – ١٩٢٩) فقد سبق هذا الأخير بارك إلى تحليل ظواهر و سيرورات الاتصال، من خلال دراسته لآثار التنظيمية لوسائل المواصلات، ولاحقا، من خلال اهتمامه باثنوغرافيا التفاعلات الرمزية لفاعلين الاجتماعين، متبعا في ذلك المقاربة التي اعتمدها ج. ه. ميد.

فقد كان كولي أول من استخدم عبارة " الجماعة البدائية / النووية "، حيث عرفها بأنها الجماعات " التي تميز بالتلاحم و التعاون الواجهي الحميمي بين أعضائها. فهي بدائية أكثر من معنى، كما أنها كذلك نظرا لأنها تمثل الأساس لتشكل الطبيعة الاجتماعية و التصورات الفردية ". إن هذا المستوى من التحليل، ضمن بيئة يحكمها التوتر بين المجتمع و الفرد، قد بدا له ذا أهمية مركزية لتقيم آثار " النظام الأخلاقي " الجديد، الذي أفرزته التجمعات الحضرية و الصناعية، وأدوات التنظيم الاجتماعي الجديدة متمثلة في العدة الاتصالية النفسية و الفيزيائية. وهو بهذا ينتقد القراءات الأحادية لسيرورة التحضر التي توحي باختفاء الجماعات النووية، وتهمل التفاعلات القائمة بين النزعات التوحيدية لمدينة و الواقع المعيش للسكان.

والواقع أن الخيار الإثنوغرافي نفسه يحكمه تصور معين لسيرورة الفردية و بناء الذات (Self). فالفرد الذي يخضع لقوى المجانسة و التوحيد القيمي و السلوكي " تلقينه وتمثله لقيم و سلوكيات الجماعة "، يملك تجربة خاصة متفردة، تجلى في تاريخ حياته، هذه الازدواجية في الشخصية الحضرية، نجدها في تصورات مدرسة شيكاغو عن وسائل الإعلام، حيث تعتبرها، من ناحية، أدوات للتحرر و تعميق التجربة الفردية، ومن ناحية الثانية، عامل تسريع في تفسخ العلاقات و التفاعلات الاجتماعية وتسطيحها و تحلها. وحسب هذه المدرسة، فإنه لا يمكن الحديث عن الاتصال من دون ربطه بالتعدية الفردية. فإذا كان الفرد خاضعا لقوى التوحيد، فإنه مع ذلك يملك القدرة على " التحايل " عليها وإبراز فرديته. هذا التعارض يتجلى في التوتر الذي يطبع أبحاث ديوي، الذي يعتبر أن الاتصال هو الداء و الدواء، في نفس الوقت، لتجاوز الضياع الذي تعرفه الجماعة الاجتماعية و الديمقراطية السياسية.

ثانيا : بحوث وسائل الاتصال الجماهرية

هارولد لاسوال و تأثيرات الدعاية

يعود تاريخ ظهور المفاهيم الأولى لتيار بحوث وسائل الاتصال الجماهيري، سنة ١٩٢٧. ويعتبر كتاب هارولد لاسوال (Harold Laswell) (١٩٠٢ – ١٩٧٨) **تقنيات الدعاية خلال الحبر العالمية** (Propaganda Techniques in the world War) من مؤلفات الأولى الذي قدمت قراءة لحبر ١٩١٤ – ١٩١٨، الموصوفة بالحرب " الشاملة "، واستخلصت الكثير من دروسها. فقد أظهرت الحرب، أن وسائل الاتصال قد غدت أدوات ضرورية في " إدارة الرأي العام من طرف الحكومات " سواء تلق الأمر بالرأي العام الموجود في الدول الحليفة أم من الدول المناوئة. وقد عرفت تقنيات الاتصال خلال هذه الفترة، ابتداء من التليفون و السينما وصولا إلى الاتصالات الإذاعية، قفزات واسعة لم تعرفها من قبل، واعتبر لاسوال أن الدعاية تناغم مع الديمقراطية. فالدعاية تمثل الوسيلة الوحيدة في خلق الانتماء و الولاء لدى الجماهير، إضافة إلى كونها أكثر اقتصادية من العنف، و الفساد و التقنيات الحكومية الأخرى من هذا النوع، فالدعاية أداة بسيطة ليست أقل أو أكثر إسفافا أخلاقيا من مضخة الماء حيث يمكن توظيفها في خدمة أهداف مشروعة أو غير مشروعة. وقد كرست هذه الرؤية الاستخدامية القوة الهائلة لوسائل الإعلام، معتبرة إياها أدوات في "تدوير وتوزيع الرموز المؤثرة". وقد نتج عن ذلك أن الحس الشعبي، الذي ساد بعد الحرب، اعتبر أن هزيمة الجيوش الألمانية تعود، في جزء كبير منها، إلى العمل الدعائي لحلفاء. فقد تم تشييء الجمهور، ضمن

هذه الرؤية، إذ إنه يخضع، من دون وعي، لثنائية المثير و الإستجابة، فوسائل الإعلام يفترض فيها أن تعمل حسب مبدأ " الإبر المخدرة "، وهو المصطلح الذي نحته لاسوال، للإشارة إلى التأثيراة المباشرة و الجماعية لوسائل الإعلام على جمهور المشت.

هذه الفرضية المحورية تناغمت مع النظرية النفسية الرائجة آنذاك : علم نفس الحشود لــ لو بون (Le Bon)ن التوجه السلوكين الذي ظهر سنة ١٩١٤ن على يد جون ب. واتسون (John B. Watson) نظريات الروسي إيفان ب. بافلوف (Ivan P. Pavlov) حول المشترط العكسي، دراسات أحد رواد علم النفس الاجتماعي، البريطاني وليام ماكدوغل (Wiliam McDougall)، الذي قال بأن بعض الدوافع البدائية أو الغريزية وحدها يمكن أن تفسر لنا سلوكيات البشر و الحيونات. وتدعيمها لرأيه، قام بفهرسة القوى البيلوجية التي يمكن أن تكون دافعا لذلك. وقد دعمت هذه التيارات المختلفة نفسها بعدة منهجية استوحتها من العلوم الطبيعية

مع اقتراب الحرب العالميةالثانية، ظهر العديد من المؤلفات التي غذت فكرة القوة التاثيرية الهائلة التي تملكها وسائل الإعلام و الدعاية خصوصا. وبين المؤلفات التي لاقت رواجا كبيرا، كتاب الروسي المهاجر إلى فرنسا، سيرج تشاخوتين (Serge Tchakhotine) يعكس عنوانه الأفق الذهني لعصر : **الدعاية السياسية واغتصاب الجماهير** Lz Viol des foules par la propagande politique)) (١٩٣٩). هذا الكتاب الذي أهداء ل " معلمه العظيم " إيفان ب. بافلوف، و " صديقه العظيم المفكر المستقبلي الرائد " وليام ماكدوغل، يمثل الوضع المعرفي لعصر في هذا الشأن. في السياق نفسه، فإن أورسن ويليس (Orson Weles)، الذي قدم على قناة س. ب. س. "CBS"، ليلة الثلاثين من تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٨سردا خياليا بعنوان " غزو من المريخ " مستوحى من رواية الخيال العلمي الشهيرة لويليس **حرب الدنيا** (La guerre des mondes)، قد أثار هلعا كبيرا في نفوس الآلاف من الأمريكيين السذج الذين صدقوا أن المريخ قد غزاهم بالفعل وقد سارع فريق من السوسيولوجين من جامعة برنستون إلى دراسة ظاهرة الفزع التي سيطرت على الأمريكيين.

أولى لاسوال، المحاضر بجامعة شيكاغو المتخصص بالعلوم السياسية، اهتماما مركزيا لمسائل المتعلقة بالدعاية، والرأي العام، والانتخابات، وموضوعات الشأن العام. وقد تناولت دراسته الثانية، التي حملت عنوان **علم النفس المرضي و السياسة** (Psychopathology and Politics) (١٩٢٠)، تحليل السير الذاتية لقادة المصلحين و الثوريين، حيث قدم تأويلات لسلوكياتهم معتمدا في ذلك على درجة مواقفهم الثورية من آبائهم. أما الثلاثينات من القرن فقد شكلت، بتعددية ظواهرها، مختبرا كبيرا للاسوال لدراسة الدعاية السياسية. فانتخاب ف. د. روزفلت .F. D) (Rosevelt سنة (١٩٣٢) كانت نقطة انطلاق لما عرف بالسياسة الجديدة (New Deal)، وتقنيات تشكيل الرأي العام، حيث ارتبط الأمر بتعبئة الجماهير لدعم برامج دولة الرفاه (Welfare State) و الخروج من الأزمة. وقد تزامن ذلك مع ظهور تقنيات سبر آراء الجمهور كأدوات أساسية في التدبير اليومي لمسائل الشأن العام. فاستطلاعات ما قبل الانتخابات، التي أجراها غالوب (Galup)، و روبر (Roper) و كروسلي (Crosley) قد نجحت بالتنبؤ بفوز الرئيس روزفلت سنة ١٩٣٦. هذا المؤشر على تنامي دراسة الرأي العام وقوته، دفع بالجمعية الأمريكية لبحوث الرأي العام American Association For Public Opinion Research)) (AAPOR)، سنة ١٩٣٧، إلى إنشاء أول مجلة جامعية تهتم بالاتصال الجماهيري، حملت عنوان The Public Opinion " Quarterly ".

لقد تشكلت الموضوعات الدراسية و البحثية للاسوال على خلفية النمو المتصاعد، خلال الثلاثينات من القرن العشرين، لاستراتيجيات الدعاية لدول المحور، من الناحية، و الاتحاد السوفياتي و الكومنتارن سابقا، من ناحية ثانية، إذ اقترح،

سنة ١٩٣٥، **في بحثه السياسة العالمية وفقدان الأمن الشخصي** (World Politics and personal insecurity)، دراسة محتوى وسائل الإعلام دراسة منتظمة وبناء مؤشرات عامة، بهدف استخلاص توجهات (Trends)، أو ما أطلق عليه تسمية " اهتمامات العالم " (World Atention)، بمعنى العناصر التي تشكل " البيئة الرمزية العالمية ". وبالتالي إمكانية بناء سياسات عملية (Policy - making). وقد نجح، جزئيا، في تحقيق هذا المشروع، سنتي ١٩٤٠ – ١٩٤١، عندما تم تكليفه تنظيم قسم دراسة الاتصال زمن الحرب (War Time Communication Study) بمكتبة الكونغرس.